العام. فعشية حرب (اكتوبر) ١٩٧٣، اثبت استطلاع في فرنسا ان اكثر من ٤٥ بالمئة من قوى الرأي العام الفرنسي تؤيد اسرائيل في مقابل ثمانية بالمئة تؤيد الطرف العربي (وليس الفلسطيني)[٥٢]. وفي بريطانيا، أيد اسرائيل ٤٧,٥ بالمئة في مقابل خمسة بالمئة ايدوا العرب. وفي المانيا الاتحادية، وقف الى جانب اسرائيل ٥٧ بالمئة، في مقابل ثمانية بالمئة وقفوا الى جانب العرب[٥٣].

ويلاحظ ان ظاهرة الانفصام بين الموقف الحكومي ومواقف الرأي العام تجاه بعض القضايا الخارجية أمر ممكن في الغرب، ويعود الى طبيعة الممارسة السياسية في المجتمع الغربي. فالحكومات تتقصّى المصالح دون ان يعني ذلك انها تعبر عن وجهة النظر الشعبية[٥٤].

وعلى ذلك، فان الاستطلاعات السابقة تقدم مؤشراً قيّماً الى موقف الرأي العام من الصورة الفلسطينية. فالرأي لا يعدو ان يكون أحد التعبيرات الظاهرة عن الاتجاهات والصور الكامنة في الذهن الغربي تجاه العرب. اما عدم وضع الفلسطينيين في مقابل الاسرائيليين في الاستطلاعات، فيدل على غياب وتجاهل البعد الفلسطيني الى حد كبير في ذلك الوقت، أو الخلط، تماماً، بين العرب والفلسطينيين.

اذا تجاوزنا كثيراً من التفصيلات الفرعية، سوف نلاحظ أن صيف العام ١٩٨٢ شهد نقطة تحوّل حقيقية، على صعيد وضع الصورة الفلسطينية في الغرب على الطريق الصحيح. في ذلك الصيف، حدثت اطول المعارك الفلسطينية الاسرائيلية، وفيها التقى، وبشكل منفرد تقريباً، اكثر الاطراف المعنيين بالصراع العربي ـ الصهيوني في مواجهة غير متكافئة على ارض لبنان. لم تكن هذه هي خاصية الحرب الاساسية فقط، وانما كانت الواقعة الاكثر وضوحاً وتأثيراً في صورة الفلسطينيين، هي الصمود الاسطوري في مواجهة عدوان اسرائيلي بيّن. هذه الواقعة أدت الى اثارة الاسئلة في الشارع الغربي، ثم أعقب ذلك «الدهشة» ازاء الموقف الاسرائيلي، ثم انحاز الرأي العام نحو شرعية القضية التي يدافع عنها المحاربون الفلسطينيون[٥٥]. كان ذلك هو الانحياز المتعاطف غير المسبوق البتّه في مجرى الصراع؛ ومن جديد، وكالعادة، كانت وسائل الاعلام هي الفنان الذي ساهم في تحديد معالم الصورة الجديدة، اذ نقلت هذه الوسائل (صحف، اذاعة، تلفزيون) احداث الحصار ـ العدوان الاسرائيلي لبيروت والمقاومة الفلسطينية المضادة الى كل بيت (حتى غرف النوم) في العالم الغربي، وشخّصت الرعب امام الجميع، مما كثّف الرغبة لدى الشعوب الغربية لوقف دائرة العنف في الشرق الاوسط. واهتم زعماء الاحزاب، ومختلف قادة الرأي من الاتجاهات كافة، بالمعاناة الانسانية الناجمة عن الحدث، باستثناء مجموعة من المحافظين الصهيونيين الذين ساندوا الحملة الصهيونية[٥٦].

لقد بدت الصورة الفلسطينية مشرقة صلبة، وبدا الفلسطينيون أصحاب حقوق، وانتقدت الصحف البريطانية الغزو الاسرائيلي وتحدثت عن «السلام الذي يبدو عند الاسرائيليين من البنود التي لا توضع في الحسبان». ووصل الامر ببعض الصحف الشعبية، كـ «الديلي اكسبرس» الى التعبير، صراحة، عن تعاطفها مع منظمة التحرير الفلسطينية والمقاتلين الفلسطينيين. بل ان الصحافة البريطانية لمست وتراً حساساً حين تحدثت عن المسؤولية الغربية تجاه مأساة الفلسطينيين، ولو بطريق غير مباشر، فذكرت «الديلي اكسبرس» «ان اسرائيل تطبق الاثم الذي ارتكبته الاجيال الاوروبية على الاطفال الفلسطينيين العرب»[٥٧]. واستقبل التلفزيون البريطاني ممثل منظمة التحرير في لندن، وترك له التحدث عن واقعة الغزو؛ وهذا السلوك يغاير ما درج عليه في الغرب من دعوة غير الفلسطينيين وغير العرب للتحدث حول قضايا الصراع العربي ـ الصهيوني.

وقد حدثت ردود فعل مشابهة في كل من فرنسا وايطاليا واليونان، وبصورة أقل في المانيا